على عرش الدهر

لماذا ؟

رواية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

وقد يكون من الابناء ضحايا في سبيل آبائهم
من حيث لا يعلمون

الفصل الاول

قصر الشربين

أغصان مشرئبة ، متشعبة ، يتراوح لونها بين الخضرة والسواد ، تعصف عليها الرياح الهوج ، فلا تنال منها سوى ثمراتها الكروية الصغيرة ، فتدحرجها ككلل الاطفال على الصخور المنحدرة !

جذوع بشاء ترتفع عمودية ، متقابلة ، ملساء ، تعصرها التاوج الغزيرة ، وتتناثرها فأس الحطّاب الحادة، فلا تظفر منها بسوى القشور الطافية تتطاير وتتناثر !

جذور دكناء ملتفة ، متشبكة ، تتزاحم تحت الثرى ، طالبة سعة المجال، فتدفع الحصى ، وتفلق الصخور ثابتةً على ممرّ الاجيال !

هي تلك الشجرات القليلة العدد، المهيبة المنظر . . . بقيت في اعالي دير القمر اثرًا خالدًا من غابة الشربين القديمة التي كانت تحرس بظلالها الوارفة قصر الشيخ قعدان ابو غانم .

قصر الشربين ، او قصر بو غانم ، كان بناء مستطيلًا على الطراز الشامي ، بواجهةٍ ضخامتها اوفر من جمالها ، إذ رُصف فيها من الحجارة الكبيرة المتلاصقة .

وكان في صدر الواجهة رتاج عظيم تعلوه عتبة منقوشة من المرمر المعرّق ؛ ونوقها صفّ منظم من الحجر المصقول تتخلله بعض حجارة عكار الحمراء الصغيرة. وكان الصفّ يؤلف قاعدةً لمثلث متساوي الأضلاع ، ينتج نافذة لجرى الهواء ، ويتصل رأسه بجنبة بارزة تمنع قطرات المطر عن الرتاج . وعن الجانبين أسدان أصفران مهيبان ، رفعا ذنبيهما بعجب واختيال الى فوق الرأسين ، ونظرا الى الداخلين بعيون ملؤها الغضب والشراسة . أمّا الباب فكان وافر السماكة من خشب السنديان المذلّل برقائق التوتيا ، وقد غرست فيه ، على خطوط أفقية متوازية ، مسامير سوداء ضخمة الرؤوس. وجُعل في المصراع الأيمن باب صغير ، لأن الباب الكبير لم يكن يُفتح الّا في الاحتفالات الرسمية.

وكان الداخل ، يمرّ في دهليز مستطيل ، سقفه من العقد المصالب يستند الى ركائز ضخمة قصيرة متقاربة تمنع دخول النور والهواء الجافّ ، فتحفظ ليلًا ونهارًا ، رطوبةً مزعجةً ، وظلامًا يكاد يكون متساويًا. وعن جانبي الدهليز كان ديوانان من الحجر يجلس عليهما الخدم ومن ينتظر مقابلة الشيخ. واذا ما تجاوز الداخل هذا الممرّ ، كان لا يملك جفونه ان تطرف شديدًا ، لسرعة الانتقال من الظلّ المظلم الى النور المتألق بانعكاس اشعّة الشمس على تلك الدار الفسيحة البيضاء. فكان يغرك عينيه قليلًا ، ثم يحدّق فيرى امامه ، في وسط صحن الدار ، بركة مستديرة ، قريبة القعر ، تتدافع فيها امواه الشلّوط المجرورة في قناة صغيرة من الفخّار . وتجاه البركة قاعة الاستقبال ترتفع عاليةً عن باقي الغرف فتنتهي بقبة بيضوية الشكل تحيقها النوافذ العديدة ، وقد قسمت الى جانبين فسيحين ، وبُني في مؤخرها كشك صغير ، على طراز سراي الامير يوسف.

في هذا الكشك كان يقضي الشيخ قعدان بو غانم باقي ايامه ، فيشرف على قيسارية الحرير من جهة ، وعلى سراي الامير من جهة اخرى ، ويراقب الحوادث الاخيرة ، تارةً يفرح لذكرى ما اتاه من افعال البطش ومظاهر البطولة في ايامه السالفة ، وطورًا يقلق لحراجة موقف الامير بشير تجاه الجزّار وابناء الامير يوسف ، ويتأسف لعجزه عن مساعدة ابن صديقه الامير قاسم . وكيف يمكنه ذلك وقد كلل الشيب هامته ، واثقلت كاهله الثمانون بما جرّت عليه من

متاعب الحروب ومشقّاتها ، ومن عظمات الانتصارات وتأثيراتها . فلم تعد رجلاه تحملانه على ظهر الادهم ، ولا يده تقوى على تحريك البندقيّة ، ولا كتفه على نقل الرمح . فرزح خاضعاً لاحكام الله ، مشغلاً فكره بفهم ملاوي السياسة ، مادًّا بآرائه الصائبة حزب الامير الشاب ، مؤملاً ان حفيده غانم يكون افضل خلف له في مساعدة اميره ، فيسعد جدّه في آخر حياته ، ويوفّر له الموت براحة وسكون .

***

كانت اشباه هذه الخواطر تتلاعب بمخيّلة الشيخ ، وهو متكئ في كشكه ، مساء الخامس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٧٩٣ ، وقد حرج موقف الامير بشير في الجبل ، وتوالت عليه مطالب الجزّار ، واشتدّت مضايقة السرعسكر له . على ان اخبار فوزه على محالفي ابناء الامير يوسف ، وضبطه ما كانوا خبأوه من الكنوز في سراياتهم وفي الاديرة ، مع تغريم النكديّة بخمسين الف غرش ؛ كانت تبعث بوارق الامل في ذاك الجوّ المدلهمّ . فيفرح الشيخ قليلاً ، ويلهو بلحيته دقائق ، ثم يهجّ طويلاً في ماسورته ، فيندفع الدخان متكاثفاً بين شاربيه . ولكنه لا يلبث ان يتلاشى متقطعاً في مهبّ الهواء ، فيبدو الافق البعيد ، ويرى الشيخ قرص الشمس يبعث آخر دفعة من انواره على قمم الجبال ، ويهبط نقطةً حمراء ، في بحر الدامور الاغبر . فتتراكم اذ ذاك الغيوم الدكناء ، ويتقدّم الظلام رويدًا رويدًا سادلاً على البلاد جماء ستر السكون والسكوت . وكأنّ الشيخ رأى مماثلةً بين نهاية ذاك النهار المؤثرة ونهاية حياته الطويلة ، وشعر بعجزه عن نصرة اميره الشابّ ؛ فترك حبل الرجاء ، واندفع غائصاً في بحار اليأس لا يفكر في شيء واضح . وظلّ في جلسته تلك حتى طفئت ماسورته ، وانثقل النعاس جفنيه ، فلم يحسّ بنسيم تشرين التافح ؛ ولم يستفق الّا على صوت جهير ملأ صحن الدار صائحاً :

— يا شيخ يو غانم ! ... اين اهل الدار ؟

فهبّ الشيخ مسرعاً ، وقبل ان يقف اجاب بكل قواه :

— تفضّل ! تفضّل !

وظهر في الظلّ شبح رجل يميل الى الطول ، يتخطى القاعة بقدم ثابتة ، ووطأة شديدة . وما ان وصل قرب الشيخ حتى وقف قليلاً وضمّ اطراف عباءته ، وقال :

— اسعد الله مساء العم بو غانم !

فوقف الشيخ متمهّلاً ، متفرّساً في وجه الزائر . ثم اشار بيده الى الديوان في صدر الكشك ، واجاب :

— ومساءك ... يا معلم نقولا ! تفضّل !

وصفق بيديه صائحاً :

— برباره !

فاتت الخادمة واثارت مسرجةً من الفخار ، غُمست في زيتها عدة فتائل قطنية ، ورُفعت على شمعدان من النحاس المنقوش . ثم اغلقت نوافذ الكشك ، فهدأ اضطراب النور . وظهرت ملامح الزائر فاذا هو شابّ في سن الثلاثين ، خفيف العارضين ، برّاق العينين ، حسن الشعر قد كفّه تحت طربوش مغربيّ قصير ، وارتدى ، تحت العباءة القصبيّة ، جبة طويلة سوداء محقولة ، شدّها في وسطه بزنّار حرير عريض ، وشكّ في الزنار ، لجهة اليسار ، دواة مستطيلة من النحاس الاصفر ، ولجهة اليمين ، خنجرًا معقوفاً كانت تلمع قبضته المرصعة . هو لباس العلماء في ذاك العصر . وما كان الزائر سوى نقولا الترك ، كاتب الامير ، وشاعره الخاص فيما بعد . فطرح العباءة على الديوان ؛ ثم خلع حذاءه والقاه في الزاوية جنب الباب ، ورجع فارتمى قرب الشيخ ارتماء التعب المنهوك .

وما انصرفت الخادمة حتى تحرّك الشيخ في مركزه قليلاً ، ومال بكليته الى الزائر ، وقال بصوت يلهثه الرجاء ، ويقطّعه الخوف من سماع ما يكره :

— الحمد لله على السلامة !

— سلّم الله عمرك ! رحلة متعبة والله

— واين تركت الامير ؟

— تركته في جهات حمّانا . كان قد كمن له المتنيون في خان الكحّالة ، واطلقوا الرصاص غدرًا على مؤخرة العساكر فقتلوا بعضهم . فعاد اليهم الامير

برجاله فبدّدهم بعد ان القى منهم عشرات القتلى . ثم قام من هناك الى البادية فنهبها ، وقتل عدداً كبيراً من اهلها لانها كانت بؤرة الفساد ، وجمع احزاب اولاد الامير يوسف . وكان فيها من ودائع تجار بيروت ما لا تقل قيمته عن الثلاثة آلاف كيس ، فضمها الامير وفرّق الكثير منها على العساكر . ومن هناك سار الى بحمدون فاخضعها ، وكذلك راس المتن .

— سمعنا هنا ان اهل المتن طلبوا اولاد الامير يوسف ، وان الامير حيدر قدم الى بعبدات بعسكر جرّار من بلاد جبيل وكسروان والقاطع .

— كل هذا صحيح . ولكن كيف تقاوم رجال الامير حيدر عسكر الجزّار وعسكر الأمير البالغ عدده ستة آلاف من اشدّ الابطال . هذا فضلاً عن ان المتنيين لما رأوا بطش اميرنا ، أيده الله ، خذلوا الامير حيدراً ولم يساعده احد . فلزمه ان يرجع من حيث اتى . وتقدّم الامراء اللمعيّون الى الامير بشير فاعطاهم الأمان .

— اذن كل شيء على طبق المرام !

وانفرجت ملامح الشيخ ، وبدا بريق الأمل في عينيه ، فصفّق بشدة حتى اتى احد الخدام ، فقال :

— اشعلوا الغلايين ، واحضروا القهوة حالاً !

اما المعلم نقولا فلم يغيّر جلسته ، ولم ينبض عرقٌ في وجهه ، بل بقي مظهراً جدّ الاهتمام وتابع :

— ولكن المسألة لا تزال معقّدة . ولا يهمّنا الآن الانتصار في الحرب بل الانتصار في السياسة . لان المعركة انتقلت من لبنان الى عكاء . . . وشعر الجزّار ان الامير سائر على طريق الظفر فاحبّ ان يستفيد منه . ووافق ذلك ان الشيخ قاسم جنبلاط اعطاك عمره في عكاء .

فقطّب الشيخ بو غانم ، واطرق مفكراً ، ثم تمتم :

— ولا شكّ ان الجزّار سوف يطلب رهينة عوض الشيخ قاسم .

— طلب رهينتين بدل الرهينة . طلب اولاً الشيخ بشير ابن الشيخ قاسم ، ثم شيخاً آخر من وجهاء دير القمر . . . مع ثلاثمائة الف غرش ، يلزم الامير ارسالها

قبل سفر الجزّار الى الحجّ ، اي قبل كانون . والّا فهو يعزل الامير ، ويخلع على الامراء ابناء الامير يوسف . هذه هي المصائب التي لم تكن في الحسبان . وقد تركت الامير في حمّانا ، واتت قبل ان يعلم بالامر احد ، عساني اتوفّق الى حلّ هذا المشكل .

وكان الخادم قد اشعل ماسورتين فقدّمها . ثم احضر القهوة فتناولاها صامتين . والخادم جامد كالصنم يسمع صوت رشف القهوة ، ويرى كلل الدخان المرتة تتصاعد بين الرشفة والرشفة .

واذ وضع الشيخ الفنجان ، مسح شاربيه ، وتنحنح ، ثم مجّ طويلاً في غليونه ، وقال بتمهّل :

— في صندوقي خمسون الف غرش كنت اعددتها لحفيدي غانم ، يتبلّغ بها بعد وفاتي حتى يفتح الله عليه بمصلحة . واني مبتعدّ لبذلها في سبيل اميرنا . يبقى مائتان وخمسون .

— لقد غرّم الامير النكديّة بخمسين الف غرش . وقد يتكون جمع مما وجد في سرايات الامراء ، ومخبآتهم في الاديرة ، ومن الغنائم نحو المئة الف .

— بقي علينا اذن مائة الف غرش

واطرق مفكرًا عدة ثوانٍ ، ثم رفع رأسه متهلّلاً وقال :

— وجدتها ! افتح دواتك واكتب كتاباً عن لساني ، الى صديقنا وعزيزنا الامير جهجاه في بعذران ، نعرض عليه المسألة مع توصيته بحفظ السرّ ، ونطلب مساعدته ، فلا يتأخر .

— وهل تظنّ ان عنده هذا المبلغ نقدًا ؟

— كيف لا واملاكه في رأس بعلبك ، وسهل البقاع ، تدرّ عليه مئات الاكياس سنويًا !

— اخاف ان يقع المكتوب بيد عدوّ ، فتُعرف المسألة ، ويتزعزع موقف الامير .

فتوقف الشيخ ، وتذكّر ان الامير جهجاه لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه ثبت على عزمه وقال :

— انا أرسل المكتوب مع حفيدي غانم، تلميذك، وهو يقرأه للامير، ولا خوف من افتضاح السر.

عند ذلك اخرج المعلم نقولا من صدره ربع ورق، وفتح دواته، بعد ان سحب من جاروزها قلماً دقيقاً من القزاز. وتناول سكينه فقط القلم، ومسحه بالمبقة. ثم كبسه قليلاً على ظفره وبدأ بالكتابة، والشيخ يملي عليه:

«من الشيخ قمدان بو غانم الى صديقه صاحب السعادة المير جهجاه حفظه الله

معلوم لدى سعادتكم الحالة الحرجة التي موجود فيها امير البلاد ومولى العباد المير بشير أيده الله. والجزار لم يكتف بما اخذ من اموال اللبنانيين حتى انه ارسل من مدة قريبة يطلب من اميرنا ثلاثمائة الف غرش مع رهينتين عوض الشيخ قاسم جنبلاط الذي اعطاكم عمره في عكا لتكم من بعده طول البقاء. وهذا امر ضمن السر فالامل حفظه في صدركم الواسع. كما وان الامل من غيرتكم تسليم حفيدنا غانم الحامل اليكم هذا المكتوب مائة الف غرش نحن والامير بكل حاجة اليها وترد اليكم عند هدوء الخواطر من ناحية الجزار. واني اعتمدت على اعطاء كل ما املك الامير وان ارسل حفيدي المذكور رهينة الى عكاء وهو يودعكم في هذه السفرة ويطلب دعاكم....

واذ وصل الى هذه الجملة انتفض المعلم نقولا وقال:

— وكيف ترسل وحيدك الى عكاء؟ الا تعلم انه ان يعود من بين مخالب الجزار؟

فاشار اليه الشيخ بالصبر وقال:

— اكتب الامضاء: الداعي بطول عمر سعادتكم.

الشيخ قمدان بو غانم

عن دير القمر في ٢٥ تشرين الاول ١٧٩٣»

ثم تناول الشيخ الرسالة فطواها، ونادى الخادم فامره ان يدعو له حفيده غانم.

وما هي دقائق حتى دخل فتى في السابعة عشرة من عمره، مستقيم القامة،

واسع الصدر ، ممتلئ العضلات ، دقيق الخصر ، لبس شروالاً من الحرير ، ولفّ على ساقيه طماقات من الجلد الاسود فانطبقت كل الانطباق على بطّتيه القويتين ، واظهرت رسغيه الدقيقين . وكان في نظره ثبات وعزيمة ، وفي ملامحه كلها قوة ارادة وحزم ، وفي وطأته شدّة وشجاعة ، تجمل من يراه لاول وهلة يجزم بانه شابّ في الثلاثين من عمره ، لولا خطّ خدّيه من الشعر ، ووسامة تقاسيم وجهه الدالة على سنّ الفتوة . دخل ذاهلاً لانها كانت المرّة الاولى التي يدعوه فيها جدّه لمقابلة الناس ، وليس من العادة ان يجلس الفتيان والشيوخ في القاعة نفسها ، ولا ان يشتركوا معهم في المحادثات ولاسيما السياسية منها .

ولكنه اذ رأى معلمه نقولا ، ظنّ انه سأل عنه ، فأسرع واكبّ على يده يقبلها ، فقبّل المعلم رأسه وانهضه بلطف . امّا الشيخ فالتفت اليه بحنوّ وغيرة وقال :

— هل تحبّ الامير بشيرًا يا غانم !

— كيف لا احبه يا جدّاه ، واقصى منايَ ان تسمح لي بالمحاربة في جيشه وبالعمل في خدمته .

— ها انا اسمح لك الآن . ولكن ليس بالمحاربة في جيشه بل بخدمته في عكاء . فاني سوف ارسلك رهينةً عند الجزّار حتى يدفع الامير ما عليه من المال .

فتقدّم غانم صامتاً ، وتناول يد جدّه فقبّلها قائلاً :

— كما تريد .

— ولكن قبل ان تذهب الى عكاء سأرسلك بهمّة الى صديقنا الامير جهجاه في بعذران . فتوصل اليه هذا المكتوب ، فتقرأه له بنفسك ... اتحسن قراءته ؟

فابتسم الفتى والتفت الى معلمه فضحك ، وضحك الشيخ ، ثم تابع :

— فتقرأه له بنفسك دون ان يعرف احد ما فيه . ثم تستلم من الامير مبلغ مائة الف غرش يجبّها هو بمعرفته في اكياس من التبن او الشعير ، وتحملها على البغال وتأتي بها مع خادمنا فرحات ... ثم تودّع اهل بيت الأمير .

لفظ الشيخ هذه الجملة الاخيرة بصوت خافت ، وابتسم ابتسامة معنوية . فارتجف الفتى طرباً ، واحمرّت وجنتاه حياء طاهراً . اذ كان في بيت الامير من يسرّه مرآها ويسرّها مرآه .

ثم خرج كي يعدّ فرسه وسلاحه ، وينبّه خادمه ، وعاد فقبّل يد جدّه ، ويد معلّمه ، وودّعهما . وسار على بركة الله .

* * *

الفصل الثاني

الامير مرجان

تخايل القمر من خلال السحب الرقيقة ، المنتشرة في اعالي الهضبات المتصلة بجبل الباروك جنوباً ، فارسل انواره ضئيلة باهتة ، تتدرج ببطء في ظلمات وادي «الداقوق» الاجرد . فكانت المنعرجات تظهر برشاء بما فيها من الحصى الكثير ، والصخور الضخمة تلقي اظلالها القاتمة تتألف اشكالاً غريبة ، تختلف دقة ووضوحاً باضطراب النيوم امام وجه القمر .

وبدا في وسط الوادي خيّال يسير صعداً بتمهّل ، والى جنبه ساعٍ يرافقه راجلاً ، متنقلاً برشاقة على الحجارة النافرة ، واضعاً يده من وقت الى آخر على ركاب الخيّال . وكان الفرس قد تعب من الصعود ، ووجبت خوافره من الحصى المتناثر تحتها ، فاخذ يعارض في سيره ، متطلباً الناحية الممهّدة من الطريق ، مرسلاً من منخريه المنتوحين نفخات منتظمة كانت وحدها تقطع سكون ذاك الليل .

وكأنّ الخيّال اشفق على فرسه ، فاوقفه الى جنب صخرة عالية ، وبعد ان امرّ يده بحنوّ على عرفه ، التفت الى رفيقه وقال :

— تعبت «ذمامة» ، يا فرحات ... ما قولك لو ترجّلت ؟

— لا لزوم لذلك يا سيدي ! قليلاً ونصل الى رأس الوادي . ومن هناك تصبح الطريق سهلاً .

ثم تابعا الصعود صامتين . حتى رأى فرحات من اللازم تسلية سيده بالحديث ،

وكان يتردّد في الابتداء بالكلام ، فقال كمن يخاطب نفسه :

— سنصل مع الشمس الى دار المير جهجاه !

فانتفض الخيّال انتفاضةً لم تخفَ على خادمه . وتابع هذا :

— وقد سمعنا في الدير ان المير استقدم العيلة من صيدا . فستستقبلنا «الستّ» بلطفها المعتاد . وسنرى « الستّ» الصغيرة ايضاً تلعب راكضةً وراء كلبها « هوّاش» .

ولو حدّق فرحات الى وجه سيّده لرأى ابتسامةً خفيّة تفرج شفتيه ، وبريقاً لطيفاً يغزل في عينيه ، واحمراراً خفيفاً يعلو وجنتيه ، فكأنه يضحك بكل جوارحه . على انه تمالك نفسه سريعاً ، وكأنه خجل من وجود الخادم ، فاراد تغيير الحديث :

— لا بدّ انا من الرجوع غداً قبل الظهر ، لان جدّي اوصاني بالاسراع

— انا طوع امرك ! ولكن اهل البيت قد لا يتركوننا نعود بهذه السرعة .

فاشمأزّ غانم لإعادة الحديث الى هذه النقطة ، وقال مظهراً عدم المبالاة :

— كم تظنّ يبقى من الليل الآن ؟

فالتفت فرحات الى السماء ، وتأمّل قليلاً في النجوم . ثم قال :

— هذا « الغرّار» قد مال الى المغيب . وقد طلع « الميزان » . . .

فاغتنم الشابّ تلك الفرصة لابعاد مجرى الحديث عن بيت المير جهجاه فقاطع خادمه :

— وما «الغرّار» ؟

— «الغرّار ! » انظره ، هو تلك النجمة الكبيرة الشديدة اللمعان التي اصبحت الآن من جهة بعقلين .

وبعد ان اطرق قليلاً ، متذكّراً اقوال الشيخ في ذاك الكوكب ، رفع رأسه بشيء من العجب والافتخار بانه اضحى كبيراً مجرّباً ، يعرف اشياء لا تعرفها الشبّان ، حتى من ابناء المشايخ . كيف لا وهو سيشرح الآن لماذا دعي ذاك الكوكب «بالغرّار» . والتفت الى غانم فقال :

— وقد سمّيت تلك النجمة «بالغرّار» لانها تشبه نجمة الصبح . ومعروف

انه متى طلعت نجمة الصبح يكون الفجر قد قرب . ولهذا ينتظر طلوعها جميع المكاريّة حتى يحتملوا دوابّهم ويسيروا « على البرود » .

وسكت قليلاً حتى اذا تحقّق اصغاء غانم لكلامه ، سرّ وتبع :

— وحدث مرة ان بعض مكاريّة الفريديس كانوا قادمين باحمال القمح من البقاع الى الدير ، في احدى ليالي الشتاء . فداهمهم الظلام قبل الباروك ، واشتدّ عليهم البرد ، فنزلوا في خان هنالك . وقبل انتصاف الليل ، افاق احدهم فرأى هذه النجمة في اول طلوعها ، فغرّته منها شدّة اللمعان فظنّها نجمة الصبح وان الفجر قريب . عندذاك اسرع الى رفاقه فأيقظهم ، وشدوا الاحمال ، ثم ساروا في ذاك الجبل المكلل بالثلوج ، منتظرين الصبح القريب . ولكن الصبح لم يطلع . وكان البرد يشتدّ شيئاً فشيئاً ، والجبل مقفر لا خان فيه ، ولا ضوء في الافق البعيد . ثم لم يلبث ان بدأ الثلج بالسقوط فثقلت الاحمال ، وتلكّأت الدواب ، وجمدت الاطراف . فتوقفت القافلة ، وبدأ المكاريّة بالصراخ ، ولكن من يسمع ! . . . وظلوا يقاسون امرّ العذاب ملتحفين بتلك الثلوج ، حتى صباح اليوم الثاني . فخلّصهم اهل القرى المجاورة وكان قد دنق منهم مكاريّان ودابة . فعرفوا بعد فوات الحين ، انهم غرّوا بذاك الكوكب ، فسمّوه « الغرّار ! »

فاظهر غانم سروره بهذا الشرح ، فزاد اعجاب فرحات بنفسه . وكانا قد وصلا الى اعلى الوادي ، فاستراحا قليلاً . ثم عاودا السير الى بعذران .

* * *

كان الامير جهجاه من آل الحرفوش المتاولة ، اصحاب الاقطاعات الواسعة في بلاد بعلبك وجوارها . وقد صرف شبابه في تلك الجهات بكل طمأنينة ، عائشاً عيشة الامراء الكبار يأمر وينهي ، ولا متردّد ولا معارض . حتى نشأ اختلاف طفيف ، على حدود بعض الاملاك ، بينه وبين احد ابناء عمه ، الامير جواد . فتعصّب اخوة هذا على الامير جهجاه الذي كان وحيداً ، وتعمّدوا له الاذى والمكروه . فوشوا به الى والي الشام وحثّوا له ان يسلب الامير املاكه الواسعة ، ففعل . عند ذاك اشمأزّ الامير جهجاه من تلك الاساليب ، وانف من قرابة تدفع ابناء العمّ الى الغدر بابن عمهم ، وفضّل الهرب على العيش في ظلّ حاكم

ظالم ، فترك دينه ، واهله ، وارزاقه ؛ وهام على وجهه ، ولا رفيق له سوى جواده ، ولا مؤنس الا رمحه وسيفه .

وكان نجم الامير يوسف بدأ باللمعان في دير القمر ، وقد استلم خلعة الولاية من درويش باشا سنة ١٧٧٠ ، فاستتبَّ له الامر من « ظاهر طرابلوس الى ظاهر صيدا . » فقصده الامير جهجاه واثقاً بمساعدته ، فلم يخيّب ظنه بل عيّنه في خيّالته ، وشمله بانعامه فنزل له غرفة في سرايته . ووافق ذلك هياج الصغيرية والصبيّة من متاولة جبل عامل ، وتحرّشهم بحدود لبنان . فنهض الامير يوسف لمحاربتهم بجيش لا يقلّ عن عشرين الفاً من فرسان ومشاة ، وخيّم بالقرب من جسر صيدا . ورأى الاميرُ جهجاه الفرصة سانحة للانتقام من ابناء طائفته ، فاخذ يوالي الهجمات والغزوات ليلاً ونهاراً حتى ضعضع قواهم ، واحرق جميع قرى اقليم التفاح ، الى ان بلغ جباع الحلاوة فنهبها وقطع اشجارها . فسرَّ الامير يوسف بذلك غاية السرور ، واقطعه ارضاً واسعة في مرتفعات بعذران .

وعندما انتهت الحرب استلم الامير جهجاه ارضه فحسّنها وعمّرها . ثم دعا الخوري يوسف ، خوري الضيعة ، واظهر رغبته في الديانة بالنصرانيّة نكايةً باهله . فعلّمه الخوري المبادئ الاولية ، وعمّده في حفلة مهيبة . ثم زوّجه فتاة من بنات المشايخ ، فرزق منها ابنة دعاها « بدور » على اسم امه . وكان قد استرجع املاكه في بعلبك ، فولّى عليها الخوّل وبقي في بعذران سعيداً وسط تلك العيلة الصغيرة .

ولما ظهر الامير بشير مال اليه الامير جهجاه كل الميل ، لا سيما بعد شنق الامير يوسف في عكا ؛ واخذ بمساعدته المادّية والفعلية . وكان الامير قد عيّنه ، في تلك المناوشات الاخيرة ، قائداً عاماً لجهات الشوف وجزّين ، يحصّن اعالي بعذران ومزرعة الشوف ، ويحرس تومات نيحا ووادي مرج بسري . فقام بالمهمّة خير قيام ، وقسّم العساكر بكل حكمة ، وجعل يزور جميع النقاط كل يوم تقريباً .

وكان ، في ذاك النهار عائداً من تفقد نقطة المزرعة ، اذ سمع هرير الكلاب شديداً من شرقي بيته . فوقف متطلعاً ، وكانت الشمس قد ذهبت القمم ، فاستكشف . واذا به يرى « غمامه » ، فرس الشيخ قعدان صاعدة بجنيده غانم ، ومعه خادمه الامين فرحات .

(البقية تأتي)